الجزائر .. في الفن العراقي الحديث

بقلم جليل كمال الدين

اذا كان سارتر والاحرار الفرنسيون ، وهم من ارض المتروبول ، قد حققوا ما اراح ضميرهم ، دفاعا عن الحرية والاستقلال المشتركين لفرنسا والجزائر ، فاننا نحن ، المفكرين والفنانين والادباء العرب ، ملزمون ، كل الالتزام ، ان نلتزم ثورتنا الجزائرية ، ثورة قلبنا العربي الذبيح الجريح، في سبيل تطويرها الى ابعد ما نستطيع ، ومن اجل ان نؤمن وجودنا العربي الجديد ، وواقعنا الحاضر والذي تغنيه دروس الوثبة العربية الخلاقة بزاد لا ينفد معطياته .

يجب ان يكون فننا البطولي ، فننا الكفاحي ، مربيا ، موجها ، معلما ، ولكن ليس بالطريق المباشر ، ليس بالطريق السلبي ، او بالطريق الهروبي، بل بالطريق الاقناعي، التعقيلي، الجدلي، والمثقف ايضا . فاختيار الاسلوب والطريقة بعده مهم لن نستطيع الاستغناء عنه او تجنبه ، او اهماله — لاسيما فترة من الوقت طالت ام قصرت — ، في التعبير عما نريد ان نفننه للشعب العربي ، وللانسان العالمي عامة . ان مرونة ومناسبة الموضوع والمضمون تحتاج التكنيك المناسب والمتطور والمرن ، كيما تشكل ، معا معادلة حية خلاقة للعمل الفني . وفي ظروفنا الاستثنائية الدقيقة نبرز اهمية التكنيك الفني بروزا عملاقا بحيث اننا لن نستطيع ، البتة ، تجاهلها . وفي العمل الفني الثوري ، والكفاحي، في مثل هذه الظروف نحتاج فناننا قدرا كبيرا من الثقافة والتعقل ، والاستيعاب ، قدر احتياجه قبل كل شيء ، سلامة الحساسية الفنية ، ورهافتها وشفافيتها ومرونتها.

هذه السطور السابقة تمهيد — او المفروضة انها تمهيد — لدراسة اعمال اربعة فنانين عراقيين في الثورة الجزائرية البطلة . والمقصود بها لوحة الفنان فرج عبو « الجزائر » ، ولوحة الفنان محمود صبري « مجزرة في الجزائر » وتمثال الفنان خالد الرحال « جميله » ، وتمثال الفنان اسماعيل فتاح الترك « جميلة » ايضا .

ان وجه الخطورة يتجلى في كون الثورة الجزائرية غنية جدا بايحاءاتها الفنية ، كأيما ثورة شعبية موجهة مقودة وفق نظرية علمية صحيحة . ولان الثورة الجزائرية تتمتع بهذا الغنى الفني الثوري ، فانها تصبح ، بالتالي ، دقيقة الالتزامات ، سخية الامكانيات . اما دقة الالتزامات فلانها ثورة طويلة العمر ، عالمية الانصار تحررية الهدف والطابع ، مؤمنة الروح والعروق . واما سخاء الامكانيات فلانها تتمتع بهذه العالمية ، ولانها تتمتع بهذا الحب العارم ، والتأييد البشري المطلق — من كل ذي عقل وحس سليم — . ولكن الفن الكفاحي حين يلتزم ثورة كالثورة الجزائرية لن يستطيع ان يحقق مكاسبه سراعا ، فهو يحتاج الحضانة السيكولوجية يحتاج الحضانة الاجتماعية والفكرية ، والايمان ، والاستيعاب ، والدراسة النقدية المدققة والواعية .

ولسنا نريد بذلك ان يذهب فنانونا الى ارض المعركة المقدسة في جزائرنا العربية البطلة . ولكنا نريد ان يمضغوا ، فكريا ، وسيكولوجيا شعورا — حسا وثقافة ، معطيات الثورة الجزائرية واجواءها . فليس باستطاعة ايما فنان متعجل ، مهما كانت قيمة ذلك الفنان الفنية والثقافية ان يصور جزائر حية منتفضة ، وان يكهربنا بها ، وان يعدينا بمعطاها ، وان يثقفنا بدروسها ، عبر الصورة . فالتعجل يحرم الفنان ، وكل انسان، الحضانة والاستيعاب . ولما كانت الحضانة والاستيعاب ضروريتين جدا

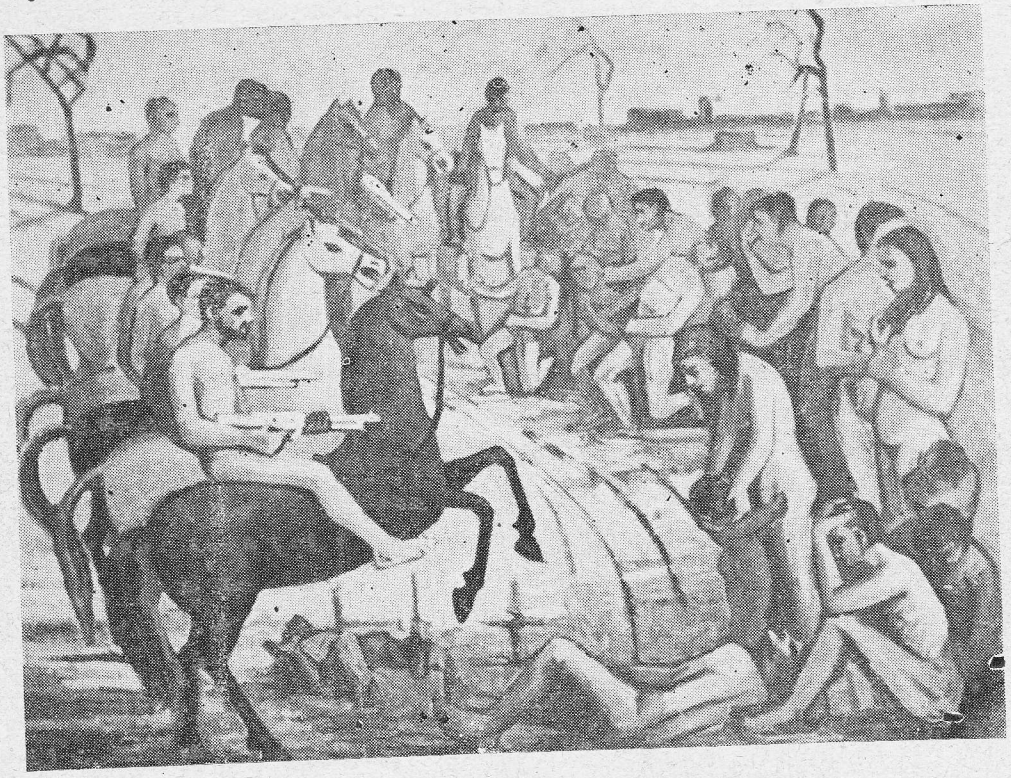

« الجزائر » — لوحة لفرج عبو

« مجزرة في الجزائر » ـ لوحة لمحمود صبري

لايما عمل فني ناجح ، سيما ما تعاطى مع الواقع الحي المتجدد ، فينتج عن ذلك ان يكون الفشل، او قلة التوفيق على الاقل ، مصير كل عمل فني لا تتم له الحضانة والاستيعاب .

وبعد كل هذه الحقائق التي نتصورها وثيقة الصلة بتحليلنا النقدي المقارن ، نباشر الدراسة . لنأخذ لوحة الفنان فرج عبو ، « الجزائر » انها لوحة يتصورها فنانها تجسيما حيا للثورة الجزائرية ، انها حصته في الكفاح من اجل تحرير الجزائر . فرج هنا يقدم جنودا فرنسيين عراة ، بيديهم الرشاشات وقد امتطوا خيولا مدربة ، قوية ، وهم يهجمون على قرية امنة سكانها نساء واطفل وشيوخ. واللوحة كما يراها القاريء ، تظهر سكان القرية عراة ايضا . وقد لف الفنان فرج اللوحة بالجو المأساوي ، كما تظهر ذلك الارتسامات المعبرة عن الاحتجاج ، والفجيعة ، والخوف الغرزي النسوي الامومي ، وكما تظهر ذلك الجثث المرتمية ، والموطوءة تحت سنابك الخيل الفرنسية . والبيوت بعيدة عن هذا المكان الذي يجري فيه الاعتداء الفرنسي ، او لعلها هدمت . والدماء تنزف ، والصراخ يتعالى ، والدموع تنهمر او تتحجر ، والخوف يحبظ العيون او يسمرها على الخيول الغريبة، والجنود الذين اريد لهم ان يمثلوا هذا الدور القذر ، والهمجي والظالم .

تظهر لوحة الفنان عبو شعبا امنا ، اعزل ، امام قوة همجية ، مسلحة ، لئيمة . وتظهر تضاعيف اللوحة ان الجنود يهجمون وكان الخيول قد جمحت بهم ، انهم مسوقون، او لعل بعضهم لا يريد الحرب والاعتداء . انهم مسوقون بتأثير الالية والدكتاتورية والارهاب الذي يمارسه استعماريو فرنسا حتى ضد جنودهم ان اظهروا تهاونا او ضعفا او ترددا. ان الحرب تعترض الجميع ، وتستنزف الجميع ، وتبتلع الجميع . هذا هو كل مضمون اللوحة الظاهري . وان كان لها مضمون باطن فهو الاحتجاج ، بل فضح همجية الاستعماريين الفرنسيين وتعرية نذالتهم .

والى هنا واللوحة لا تزال سلبية المضمون . الموضوع موضوع ثورة جزائرية ، ثورة عربية انسانية يتساقط صرعاها كل لحظة ، في سبيل قضية مقدسة . والموضوع موضوع بطش ارهابي اسود ، بل بطش ابادي ، تمويتي ، يقصد به محو القومية العربية في الجزائر . وتجاه معطيات موضوع كهذا الموضوع ، لا يمكن ان نرضى بمجرد لوحة تصور جنودا على خيول يقتصبون او يفتكون بقرية آمنة . الموضوع اكبر من ان يقدم مضمونا ساذجا كهذا المضمون ، بالرغم من غنائية اللوحة .

هل أجهض الفنان عبو مضمون الموضوع ومعطاه ؟ لا نعتقد انه تعمد الاجهاض ، بدليل انه مؤمن ببساطة وبعفوية وبلا تردد ، بالقضية الجزائرية ، ولكن بساطته ، وهذا مهم ، تقترب كثيرا من السذاجة . ان عبو تعجل اللوحة ، ولم يستوعب معطيات الثورة الجزائرية تمام الاستيعاب. فبامكان اي صورة فوتوغرافية ان تقدم دليلا ابلغ ، ورسالة احتجاجاتم،من لوحة الفنان عبو . ولكن الا يتميز عبو بشيء ما في لوحته ؟ نعم ، انه يتميز بالبساطة المفرطة ، فالاخيلة تدعمها الحقائق اليومية والتقارير الصحفية الاذاعية ، وهي اخيلة بسيطة عن قرى جزائرية تباد كل ساعة في الجزائر . والاجواء في الصورة من نوع الاجواء التي نستطيع ان نستحضرها بمجرد تذكر النكبة التي حلت بالحسين وآله في كربلاء . والابلغ من هذا ،كله ان السربلة الشعرية التي تتميز بها اللوحة جاءت بسيطة هي الاخرى ، بحيث انها لن تتفور وجداننا وكامنتنا طويلا ، او انها ان تفورته ، لفترة ، فهي تنسحب امام ايما لوحة اخرى اقوى مضمونا، وابلغ معطى . وثمة شيء ثان تتميز به اللوحة ، وهي انها انسانية بشكل ما. فالجو المأساوي ، رغم عدم تقنينه التقنية المطلوبة ، يمكن ان يعيش كل فاجعة انسانية ، كل نكبة بشرية اخرى . فالشعب الاعزل يباد دائما ، تحت وابل الرصاص ، وبالرشاش ، وبالقوة الهمجية . وبامكان اللوحة ان تسوح انسانيا ، فتعبر ، ولو بشكل غير متكامل ، عن المأساة الانسانية بالمعنى السلبي .

اما لوحة الفنان محمود صبري ، « مجزرة في الجزائر » ، فتمنحنا تأملات خصيبة في المعطيات الايجابية للثورة الجزائرية . فراية الثورة المرفوعة، ابدا ، رغم المشانق ، والتعذيب الهمجي البربري الذي يؤديه غستابو استعماريي فرنسا ، وهذا التقتيل ، والتذبيح ، والقصد والكهربة ،

« جميلة » ـ تمثال لاسماعيل فتاح الترك

والتقطيع ، والحرق ، والاقتلاع ، والخلع ، وسمل العيون في السجون والمعتقلات ، مضافا الى الايمان الذي ترسمه العيون الجاحظة ، النائئة والصامدة ايضا ، والى راية السلم والاطفال وهم يتشربون المصير الفظيع ، كل هذا قد ادفق في اللوحة نسغا موارا بالخصب الايجابي في الايحاء والمعطى ، بحيث ان ايا من كان لا يستطيع مقاومة الدروس التي تهتف بها اللوحة . اما ان درسنا التخطيط وهو اخصب من اللوحة في منظر حمامة السلم الذبيحة ، ورأس مجاهد ومجاهدة رفعا على حراب الهمج الفرنسيين ، فانت تستطيع ان تقول ان « مجزرة في الجزائر » كانت جسيما طيبا ، ناجحا، للمجازر ، وللثورة الجزائرية ايضا ممثلة في هذا التطاع العمومي الدلالة ، والعميق المغزى والاشارة .

ثمة ما يكسح عن اللوحة الدلالة السلبية التي قامت بها لوحة الاستاذ سعيد . وهذا هو ما تبرزه تضاعيف الجو التراجيدي ، الواقعي ، والمتطور في اللوحة . فبرغم التعذيب ، وهو ابشع تعذيب يجري في ايما سجن ومعتقل في اي جزء من اجزاء العالم ، لا يزال ابطال الثورة مؤمنين ، بل انهم يحملون الراية،وهذا هوالمغزى الانشائي ، بل دلالة التطور في اللوحة. فالمسألة تسير سيرا حرونا ، والدماء تفرق الابطال والنساء والاطفال ، والروح تلاحق بالف وسيلة ووسيلة ، ولكن الايمان لا يزال ينمو ، بل لا يزال يتطور ويتصاعد بحيث ان راية الثورة الحمراء ترفع عاليا ، كحصيلة لذلك ، بحيث ان راية السلم البيضاءلا تزال تعانق راية الثورة الحمراء ، كمحصلة نهائية . وهكذا تعانقت الانسانية والواقعية في جو تسوده الفانتازيا والفنائية .

والتشويه الذي يلجأ اليه فناننا الواقعي التعبيري صبري يفيد كثيرا في ابراز رأي الفنان ذاته ، وفي احتجاجه ، وفي دروسه ، وفي سربلة اللوحة بالسربلة الشعرية الحية . فالاذرع الطويلة المعروقة ، والرقاب المشرئبة ، والطويلة ، المنتصبة والمطرقة ، والرؤوس الكبيرة ذات العيون الجاحظة ، النائئة ، الصامدة ، كل هذا يقدم مستندات الايمان والتبلغ بالايمان ، بالثورة ، وبالنصر المحتم . وهذا شيء لن نجده في لوحة الفنان عبو ، فقد جرت مجرى كلاسيكيا ، وباقتراب كثير من الحقيقة الظاهرة فحسب ، وهو امر يوفق فيه عبو كثيرا .

وحين نأتي الى المنحوتتين الرائعتين في الثورة الجزائرية،نراهما تتحددان في الرمز للثورة ، في بطلة الثورة ، في رمز بطولة الثورة ، وبطولة الشعب الجزائري : « جميلة » . وما من شك في ان خلاص جميله من الاعدام ، نصر هائل لا حد لتثمينه وتقييمه ، لانه بطبيعة الحال ، وبالضرورة ، نصير استثنائي للانسان كله ، على اعداء الانسان ، وللنور على الظلام وللشعوب على الاستعمار ، والاحتكار والرجعية العالمية

وحين تخلد « جميلة » في منحوتة ، فينبغي ان تأتي المنحوتة جميلة، رائعة طيبة ، بناءة في المعطى والموحي ، انشائية في الرسالة والفوح والعبق والعبير ، والا لعدت المنحوتة سالبة ، سلبية ، متكلسة ، لاتقدم ولا تؤخر في سير الثورة العربية الجزائرية ، ولعدت على الاقل ، غير متكاملة الابعاد

ومنحوتة الفنان خالد الرحال تقترب كثيرا من الفن اليوناني الروماني الكلاسيكي الخالد ، وهي نابضة بالايحاء الشعري العظيم القيمة الجمالية. وكل هذا فيما يخص اطارها العام ، ولكن مضمون المنحوتة ، والمنحوتة تخلد بطلة ثورتنا العربية ، لاتقدم منطلقات الثورة وابعادها، كاملة،متنامية، متعاطية ، متحاضنة ، متناسقة . ان جمال المنحوتة الشكلي وغنائيتهاشيء، وجمال المضمون والتكنيك وكمالهما شيء آخر . ليس ثمة تعاون عضوي ووظيفي حي بين المضمون والتكنيك في منحوتة الرحال ، كما يتوجب ان يكون التعاون . ان « العمومية » في المنحوتة شيء يستوقفنا ، ونحن ان تجاهلنا التشابه بين الصورة الفوتوغرافية لجميلة وبين المنحوتة ، فلن نستطيع ان نتفهم ان هذه المنحوتة هي منحوتة جميلة الثائرة ، وبطلة الثورة العربية الجزائرية،والمؤمنة ، والضاحكة في وجه القاضي الاستعماري البليد حين حكمها بالموت .. والرامز لاشرف وانبل ما في عروبتنا الانسانة ابدا .

صدر حديثا عن دار صادر ودار بيروت

ق.ل.

١ ـ الاوثان بقلم ميخائيل نعيمه ١٢٥

٢ ـ النور والديجور بقلم ميخائيل نعيمه ٣٥٠

٣ ـ الرغيف بقلم توفيق يوسف عواد ٤٠٠

طبعات جديدة وانيقة

اغنية لاجئ الى ايار ١٩٥٨

أيار الاسود عاد
عشرة اعوام حداد
وجبين في لون الليل
تكسوه باهتة الظل
من لون المأساة خيوط
من لون العيش على الذل
من صمتة شعب كالليل

*

ايار الاسود عاد
والوجه المزروع قتاد
وكأن لم يحمل ازهار
او يعرف نيسان الزخار
بالعطر الاخضر بالاطيار
بالحب الوردي الازرار
والعود المسحور الاوتار

ايار الاسود عاد
ذو القلب الدامي الاحقاد
القلب المملوء دماء
الراقص في عرس الاشلاء
الماضغ تاريخ الافناء
تاريخ النكبات السوداء
والشعب الضائع في الصحراء
في البحر المسعور الانواء
في ليل التشريد (الوضاء)

*

ايار الاسود عاد
والذكرى تنهش في الاكباد
وتهز الالاف المرميه
في خيمة ذل منسيه

مضغتها ريح شتويه
عزفت الحان الابديه

*

ايار الاسود عاد
في عام مشحون وقاد
ومصير مجهول الاعصار
لا يعلم ما تخفي الاقدار
لا يدري عودة « ايار »
هل تبقى عنوانا للعار ؟!
ام ان المطعون الجبار
في وثبة مقدام زآر
سيحيل الدنيا اغرودة ثار ؟

كمال مصاروه
الاردن ـ الكرك

وهنا نجد الرحال مع عبو متعاونين متفاهمين ، فكلاهما لم يحتضن اللحظة السيكولوجية المعطاء ، وكلاهما لم يوفرا الوقت اللازم لهذه الحضانة السيكولوجية ، وكلاهما تجاهل ـ وليس تجاهلهما عن عمد ـ قيمة الوقت والتشرب برموز الثورة ، ومعطياتها ، وبطولتها ، ودسومة ايحاءاتها.

اما منحوتة الفنان اسماعيل الترك ، فهي تفارق منحوتة الرحال في المعطى والموحي ، وتفارقها في الرؤيا ، وتفارقها في التعقيل والتوجيه ، ومع ان الموضوع نفسه ، كما كان في الثورة الجزائرية بالنسبة للفنانين صبري وعبو ، الا ان المضمون والتكنيك اختلف وتباين في كل من اللوحتين والمنحوتتين.

في المضمون تختلف منحوتة اسماعيل عن منحوتة الرحال : في السلاسل التي علقت بها بطلتنا جميلة ، وفي وضعية اليدين ، اليد اليمنى المثنية، واليد اليسرى وهي تشيل الايمان والصمود وفي الاطراقة وهي تحتضن الثبات وعدم التردد ، وعدم التهيب ، وفي الخشونة في الكساء النحتي، التنوءات البارزة ، والتشققات التي تنم عن تشققات جرحية ، وصمودات موقفية ، وعذابات نفسية مقرونة بموقف الرفض الجاد للتعذيب، ووحشية التعذيب ، واهانة الانسان والفكر .

والسلاسل تنقطع حتما ، جراء الايمان الجاد ، الصبور ، المتطور بالقضية والرأس يشيل ، ظافرا ، الجسد المعذب ، وهولحاء الروح الثورية البطلة .

والصدر قد ادفقت فيه بطولة استثنائية ، هي اشعاعات الايمان ، والفكرة المضيئة ، والصرامة ، فبدا ضخما يتحدى ، كما تحدت اليدان ، وكما تتحدى اصابع اليدين ـ والسلاسل تربطها ـ وكما تتحدى العيون ، وكما يتحدى الرأس وهو مطرق في اباء وشمم . ومثل هذا التكنيك من اسماعيل ، وفي منحوتته ، شيء طيب جدا ، لانه قد جاء بسربلة شاعرية رهيفة ، لم تفقد معناها الثوري ودلالتها الانسانية . البطلة جميلة ، شكلا وملامح ، لكنها جميلة في شاعريتها ايضا في ايمانها بالقضية ، وفي تمردها ، ورفضها ، وتطورها ، ونصرها . والبطلة جميلة في شاعريتها النبيلة ، ولكن ليس بالمعنى الكلاسيكي ، بل بالمعنى الواقعي ـ شبه التعبيري الحديث .

ان اسماعيل الترك يقترب حثيثا من الواقعية التعبيرية ، وهو يسجل بذلك ، وهي منحوتته هذه على وجه الدقة ، كسبا بالغ القيمة ، نسبة الى منحوتاته الاخرى الحاضرة والسابقة، وعلى الاخص منها « الصياد » و « الذهاب الى الحقل » . ان موضوعه ومضمونه يتفتحان تفتحا قوميا شفيفا وذكيا في آن واحد ، ومع ان التكنيك لا يتكامل كليا ، الا انه بطريق التكامل ، كما تشير الى ذلك ارهاصات منحوتاته عامة .

اما الرحال فمع طوفانه بالتجريدية ، نجده يقترب ، كلاسيكيا ، في منحوتته لجميلة . وهذه المنحوتة طيبة الموضوع ، ان قيست بسائر منحوتات الفنان المجيد الرحال ، بل انها كسب قيم جدا لفنه .

وكلا المنحوتتين يسوحان انسانيا ، وان كانت الدلالة الايجابية في منحوتة اسماعيل ابلغ واتم . وكأن اسماعيل ، هنا ، يضع يده بيد صبري في تجسيم الثورة الجزائرية بطلة ورمزا ، بينما تنظر منحوتة جميلة للوحة عبو ، من حيث الاطار الكلاسي، والمضمون، وان اختلفا في بعض المعطى.

بغداد — **جليل كمال الدين**